تأملات في المجتمع

١. المسرح الكبير.
٢. الغيبة.
٣. المرأة.
٤. علاقة المسامحة والمشاحّة.
٥. حكومة الأخلاق.
٦. العدالة والحرية.
٧. قليل من السياسة.
٨. الزمن.
٩. الربا ولحوم السباع.
١٠. إدارة الفراغ.
١١. الأسعار فلسفة حياة.

obeikandl.com

obeikandl.com

١ المسرح الكبير

obeikandl.com

obeikandl.com

المسرح الكبير

يفرض أي مجتمع إنساني على أفراده أنماطاً من السلوك تنسجم مع منظومة قيمه ومعتقداتـه، ولكـن المجتمعات البشرية تختلف عن بعضها في اسـتبدادية هذه الأنماط وقسوة العقوبة التي تنزل بالمخالفين.

المجتمـع العـربي (النجدي بشـكل خـاص) يبالغ في فـرض أنماط محـدودة من السـلوك بما فيها أسـاليب الكلام والمظهر العام...إلخ إلى درجة تجعل الإنسـان الذي يخشـى النقد أو يرغب في العيش بسلام يلتزم بشكل صارم بهذه الأنماط (راجع قائمة الواجبات في فصل تقدير الذات).

وأصبـح مـن الصعـب على الإنسـان أن يكون نفسـه كـما يحب، بـل اضطر كل إنسـان إلى أن يـؤدي دوراً يعتقد أن المجتمـع يكافئه على القيام بـه، ويبالغ بعضهم في هذا التقمص، لدرجة يمكن تشـبيهها بالتمثيل على خشبة مسرح. فتحولت شوارعنا وحاراتنـا وأسـواقنا إلى ما يشـبه المـسرح الكبير والمخـرج (المجتمع) يـوزع الأدوار، ويحدد النصوص، ويعاقب الخارجين عن النص.

الثمن الذي ندفعه مقابل إنتاج هذه المسرحية العبثية باهظ جدًّا. اختفاء الإبداع وظهور الأمراض النفسية وغياب وتهميش للسعادة.

يتسـاءل بعض المسـافرين عن سر تلك النشـوة التي تهبط عليهم عند وصولهم إلى بلد المقصد (المعني هنا المسـافرون الملتزمـون ظاهريًّا ببعض الضوابط) وأعتقد أن ذلك الشعور اللذيذ منبعه هو التمتع بالإجازة الحقيقية من التمثيل، وهو العمل الذي يفرضه المجتمع بشكل مستمر.

محاولات الخروج من المسرح دون مغادرة المجتمع تتسبب في عقوبات صارمة. ومن المعروف في علم النفس الإكلينيكي أن الحاجة البشرية للقبول والخوف من الرفض أحد المحددات الكبيرة للسلوك البشري.

إحدى الآليات التي يستخدمها المجتمع (المخرج) لمن يرفض التمثيل في المسرح هي إطلاق الألقاب القبيحة. حاول أن تتذكر بعض زملائك في المتوسطة أو الثانوية أو بعض الأشقياء في الحارة ممن كانت لديهم نزعة فردية استقلالية، فستجدهم الأكثر تعرضاً للألقاب (تسمى في عامية نجد المعايير ومفردها: معيارة) وقد فطن إلى ذلك عبدالله المحيميد في كتابه الجميل (تقشير).

إن الصعود لخشبة المسرح الاجتماعي الكبير بشكل يومي ودون انقطاع أمر بالغ الصعوبة مرهق نفسيًّا مكلف اقتصاديًّا مستنزف للطاقات قامع للإبداع. بل إن العبادة الخالصة المجردة تصبح صعبة المنال.

يذكر أحد الإخوة أنه يشعر بمتعة مضاعفة في الصلاة، عندما يكون خارج مجتمعه أو في البر، حيث لا يجد الشيطان مدخلاً، ويصبح الإخلاص أمراً أقرب للتحقيق.

هل من حل يريحنا (ولو جزئيًّا) من هذا العناء اليومي المتصل، ويخلصنا من هذا المخرج (المجتمع) المستبد؟

أعتقد أن من المستحيل التمتع بالروابط الاجتماعية الرائعة التي ينميها، ويدعمها المجتمع وبنية الأسرة المتماسكة وفي الوقت نفسه التخلص من الفضول والرقابة الاجتماعية المستمرة والسلبية.

وتجربة المجتمعات الغربية تشهد على أن تحقيق قدر كبير من الحرية الفردية والتخلص من الرقابة الاجتماعية الصارمة أو بحسب عنوان هذا الفصل الخروج من

المسرح أو إغلاقه تماماً قد كلف المجتمع تكاليف باهظة جدًّا، وسبّب ضعفاً كبيراً في بنيته وعلاقة أفراده. وقد صدر كتاب جميل بعنوان:

(THE PARADOX OF CHOICE) للكاتب (Barry Schwartz).

يخالف الفكرة السائدة في القيم الغربية التي تقول: إن مزيداً من الحرية يضفي مزيداً من السعادة، فقد كشف الكاتب عن ظاهرة مهمة تقول: إن المجتمعات التي تفرض بعض القيود على أفرادها أكثر سعادة.

إحدى القواعد الرائعة في ديننا هي الحديث الشريف: (**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**) إلا أننا نتصرف تماماً عكس مقصد هذا التوجيه النبوي الكريم.

فأصبحنا ننفق كثيراً من الجهد والوقت في أعمال رقابية غير مدفوعة الأجر، بل أحياناً نقوم نحن بالعمل، وندفع الأجر، فممارسة الرقابة وانتقاد الآخرين وإصدار الأحكام عليهم فضلاً على أنها تقيد الحريات، وتشل متعة الحياة فهي أيضاً عملية مكلفة نفسيًّا كما تشير بحوث علم النفس الإكلينيكي.

في اعتقادي أن كثيراً من التعاسة في المجتمع اليوم مصدرها صعود خشبة المسرح وأداء الأدوار كما يريد المخرج (المجتمع) لا كما يريد الإنسان نفسه.

لا بد هنا من إشارة واضحة إلى أن بعض القيود ومحددات السلوك منبعها نص ديني قطعي الثبوت والدلالة، وهذه لا مجال لبحثها، بل نجزم أن مردودها على حياة الإنسان أكبر بكثير من تكاليفها الظاهرة علاوة على أنها رصيد للحياة الآخرة.

ولكن مع الأسف الشديد أن منظومة القيم المحركة للأفراد (اللائحة التنفيذية للسلوك الفردي في أي مجتمع) لا تلتزم بما تفرضه شريعة المجتمع.

وفي مجتمعنا الإسلامي غالباً ما تكون سلطة المجتمع أقوى من سلطة الدين في فرض محددات السلوك. لنأخذ مثلاً جريمة كالزنا وضع لها الإسلام قواعد واضحة

أهمها المساواة التامة بين الرجل والمرأة في التحريم والعقوبة، ولكن المجتمعات في العالم الإسلامي لا تلتزم بهذا الهدي النبوي الرباني، وإنما تمارس تمييزاً كبيراً في معاقبة الجنسين عند ارتكاب الجريمة نفسها.

السؤال المهم إذا اتفقنا على صعوبة الاستمرار في العمل في التمثيل القسري بشكل يومي: كيف يستطيع من يرغب في ترك هذه الوظيفة (الأشغال الشاقة المؤبدة) المرهقة أن يقنع المخرج بقبول استقالته؟ أو ربما السؤال بشكل أعمق: هل من الممكن إغلاق هذا المسرح الكبير؟

دعونا نحاول أن نجيب عن السؤال الثاني أولاً، ونقول: إنه لا يوجد مجتمع إنساني دون محددات للسلوك تدفعها منظومة من القيم والموروثات، ولكن المجتمعات تختلف بشكل كبير حول طبيعة هذه المحددات ودرجة العقوبة المفروضة على المتجاوزين.

مشكلة مجتمعنا العربي (المحافظ خصوصاً) هي في المساحة الضيقة التي تفسحها هذه المحددات للمناورة في السلوك وقسوة العقاب عند التجاوز، ولا بد من الإقرار بوجود إيجابيات لبعض هذه المحددات، ولكن المتابع لمسيرة هذه المحددات خلال الثلاثين سنة الماضية يلاحظ أن جوانبها الإيجابية في ضعف مستمر، وجوانبها السلبية في نمو مطرد.

تأمل مجموعة من المدعوين في مناسبة ما، وحاول أن تتذكر كيف كانت الحال قبل ثلاثين سنة، فستجد أن المحددات الإيجابية في هبوط والسلبية في صعود.

هل هددت الوفرة المفاجئة منظومة القيم في مجتمع اعتاد على القلة في كل شيء قروناً طويلة؟

٢ الغيبة

obeikandl.com

obeikandl.com

الغيبة

مـن يتدبـر منظومـة التجريم والعقوبة في الإسـلام يجد تناسـباً واضحـاً بين أثر الجريمة والعقوبة المترتبة عليها، فمثلاً الزنا جريمة تعريفها الفسيولوجي واحد، لكن أثرها يختلف وبشـكل كبير إذا ما وقعت من شـاب غير متزوج أو شـابة غير متزوجة مقارنـة بآثارها إن وقعت من متزوج أو متزوجـة، وتزداد آثارها إن وقعت مع زوجة جار أو من رجل كهل (أشيمط) أصبح قدوة للناس، وقلت عنده الدوافع، وقد رتب الشرع وعيداً وعقوبة مختلفة لكل نوع، والسرقة كذلك إن وقعت في غير محرز تختلف عن الحرز، وتختلف عن السطو أو قطع الطريق.

أتذكـر هذا دائماً عندما أسـمع الوعيد الوارد في حق مـن يغتاب الناس. ما الأثر الذي تسـببه الغيبة، حتى يسـتحق مرتكبها هذا الوعيد، وحتى يـرد نص قرآني قاطع فيهـا « **ولا يغتـب بعضكم بعضا أيحب أحدكـم أن يأكل لحم أخيه ميتـاً فكرهتموه** »

تشبيه رهيب لممارسة الغيبة.

وعرف الرسول الكريم ﷺ الغيبة ببساطة: «**ذكرك أخاك بما يكره**».

فما الأثر الذي يتركه تفكه مجموعة من الناس بأحدهم، وهو غائب لا يعلم؟

دعونـا نتذكـر ناموسـاً كونـيًّا أصبـح في حكم المسـلمات، وهـو أن الإنجازات الكبرى تحتاج إلى مغامرات وإلى جسارة على الأخطار، وتقبل نسبة عالية من الفشل.

تـكاد ثقافـة المغامرة وقبـول الأخطار العالية تفسر جزءاً كبـيراً من تفوق الأمة الأمريكية وسيادتها على العالم في القرن العشرين.

إن انتشار الغيبة وعلم كل فرد بالمجتمع أن الألسن ستلوكه إذا ما فشل أو أخفق في مشروع أو عمل سترفع تكلفة المغامرة، وتجعل الفرد يحجم عن الأخطار ويربي أبناءه على سلوك دروب السلامة، ومن ثم تشيع ثقافة الخنوع، وثقافة الانشغال بالآخر، والصدود عن الذات وقبول الواقع وإيثار السلامة، وتنتشر في مجتمعنا منظومة من الأمثال التي تمجد هذا السلوك: «من خاف سلم» «باب يجيك منه الريح سده واستريح»، «احفظ للناس، ولا تصلح لهم» وهكذا.

يقول المحفز الأسترالي الشهير بول حنا: «إن الهوة الكبيرة لا يمكن تجاوزها في قفزتين» فالمغامرة وتقبل نسب عالية من الأخطار أمر ضروري لأي مشروع كبير على المستوى الاقتصادي أو الاجتماعي. فإن كانت تكلفة الفشل عالية فقد تسبب ثقافة المجتمع التي ترفع تكلفة الفشل عزوف أفرادها عن المغامرات، وتحمل الأخطار، ومن ثم الإحجام وخسارة المجتمع من ثمرات الخطوات الجريئة والقفزات الواسعة.

إذاً، الغيبة عائق تنموي خطير، حيث يؤدي شيوعها إلى رفع تكلفة الإخفاق وعزوف أفراد المجتمع عن أي مبادرة تحتمل الفشل.

٣ المرأة

obeikandl.com

obeikandl.com

المـرأة

عنـد تدبر السياسـات الخارجيـة للـدول الكبرى الممثلـة للحضـارة الغربية في عصرنـا نجد اهتماماً كبيراً مبطناً ومعلناً بموضوع تحرير المرأة، وأحياناً يسـمونه تمكين المرأة وحقوقها السياسية ومساواتها بالرجال.

قرأت كثيراً، وسألت كثيراً من المفكرين، ولم أجد جواباً شافياً للسؤال الآتي:

ما سر اهتمام الغرب بالمرأة؟

نحـن نعلـم أن الغرب منـذ حركـة الإصـلاح الدينـي البروتسـتانتي وانتصار الرأسـمالية وسيادتها يسير وفق فلسـفة نفعية، وتسيِّر سياساته الخارجية المصلحة دون أن ننكر وجود نفس أيديولوجي أحياناً، ولكن تأثيره قليل.

حتى تلك الدراسـات الاسـتشراقية الكلاسـيكية الرصينة والأكاديمية الحديثة التـي كنـا نعتقد أنها أقرب مـا تكون للحياد العلمي، ظهرت بحوث تشـير إلى أنها ما هي إلا توطئة للهيمنة والسيطرة واستغلال الآخر وإيجاد بيئة معرفية تساعد على ذلك (انظر مثلاً إلى دراسة إدوارد سعيد عن الاستشراق).

ما الذي إذاً يدفع الغرب إلى كل هذا الاهتمام بالمرأة في المجتمعات الأخرى؟

لكي لا نتهم بالقفز للنتائج سنقول: إن ظواهر هذا الاهتمام واضحة في الخطاب السـياسي الغربي وفي الإصدارات الفكرية، بـل في المؤتمرات والندوات المدعومة التي من أهمها مؤتمر القاهرة للتنمية والسكان الذي عقد عام ١٩٩٤م.

بل وصل الأمر إلى جهود مشـبوهة لسـفارات الولايـات المتحدة وقنصلياتها في الدول الإسلامية، بعضها نشر بوصفه فضائح في الصحف.

كثير من طلبة العلم والدعاة يقدمون لنا جواباً جاهزاً يستند إلى نظرية المؤامرة، ويستشهدون بالآية الكريمة: ﴿ وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ﴾ أو الآية الكريمة: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ﴾.

مما يثير الدهشة ما ذكره الزوجان «ألان»، و«باربرا بيس» في كتابهما الشهير: «لماذا لا يستطيع الرجال أن ينصتوا، ولا تستطيع النساء قراءة الخرائط» وهو كتاب بيع منه عشرة ملايين نسخة، يوضح الفوارق الأساسية بين الرجال والنساء، فقد ذكرا باستغراب كبير الحساسية المفرطة التي يتعامل بها المجتمع الغربي اليوم مع هذا الموضوع، الكل لا يريد أن يضبط متلبساً بالقول: إن الرجال والنساء مختلفون، فالذي يبدو أن هناك عقوبة اجتماعية وسياسية كبيرة (وإن لم تكن قانونية) على من يدعي ذلك.

يزعم المؤلفان أن كثيراً من المعلومات التي حصلا عليها جاءت من تصريحات غير مسجلة، وطلب المصرحون بها عدم ذكر أسمائهم، وبعضها جرى بحثه في غرف مظلمة، خلف أبواب مغلقة، كما ذكرا ذلك حرفيًّا في مقدمة الكتاب.

سيظل سؤالاً مشروعاً ومفتوحاً عن الأسباب الحقيقية وراء إصرار العالم الغربي اليوم على أن الرجال والنساء متساوون، وفي ترويج القوى الغربية لهذه الثقافة وابتزاز دول العالم الضعيفة ومكافأتها على أدائها في هذا الجانب.

كتاب الزوجين بيس خلاصة عظيمة لجهود سنوات من البحث والتحري والتقصي قطعا من أجله ٤٠٠,٠٠٠ كلم وقابلا كثيراً من خبراء العالم، وقدما عروضاً ومحاضرات في معظم دول العالم (من ضمنها المملكة العربية السعودية).

وقد انتهيا إلى أن العلم يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الرجال والنساء مختلفون تماماً، فليس الذكر كالأنثى على الإطلاق.

وقبلهـا الدكتور «جون جـري» قد وصل إلى النتيجة نفسـها وعبَّر عنها بعنوان رائع: (الرجال من المريخ والنساء من الزهرة).

كـما لو أن الرجال قد قدموا من كوكب المريخ والنسـاء من كوكب الزهرة، وقد استخدم هذا العنوان لكتاب أصدره باع منه ملايين النسخ.

وقد أفاض الكتابان في الفروق الجوهرية فسيولوجيًّا وبيولوجيًّا وسيكولوجيًّا بين الرجال والنساء، بحيث تجعل كلاًّ منهما يفكر بطريقة مختلفة تماماً، ويفسر الرسائل بطـرق مختلفـة، ويملـك مواهب مختلفـة، ويصلح لأعـمال مختلفة، تتكامـل فيما بينهما لمصلحة المجتمع، أفراداً ومؤسسات.

يثـار اليـوم كثير من القضايا عن شـهادة المرأة أو التعـدد أو الحجاب...إلخ من الأمـور التـي تخص المرأة، وتقـدم لنا الحضارة ذاتهـا التي آذتنا بهذه الأسـئلة، دلائل مذهلـة عـلى المصدر الإلهي للتشريع الإسـلامي، فقـدرات المرأة تختلـف عن قدرات الرجـل بشـكل جوهري يجعلها تصلـح لأداء مهمات معينة، وتقـل كفاءتها في مهمات أخرى، وإن قدرات الرجل تؤهله لأداء مهمات معينة وتقعد به عن أداء مهام أخرى.

وتوصل الزوجان بيس إلى أن الرجل (ذكر الجنس البشري) ينتمي إلى المجموعة المعـددة مـن النوع الحيواني، فكل خواصه الجسـدية، تدعم هـذا التوجه، وقد عبرا في النهاية عن ذلك بقولهما:

«إن هـذا هـو السـبب الـذي يجعل الرجـال الآن يكافحون لكي يبقوا غير معددين».

وكما يعلم كثير من القراء أن الزواج الإسـلامي كان عرضة لكثير من النقد على أسـاس أنه صفقـة تؤدي إلى تشـييء المرأة، كما يزعمـون. وقد انتهـى الزوجان بيس إلى أن الـزواج صفقـة تقـدم المرأة من خلالهـا الجنس؛ لتحصل على الـزواج (بمعنى

الرعاية) وهي البنود الأصلية ذاتها في الزواج الإسلامي تمكين من المرأة مقابل نفقة من الرجل، ثم تأتي المودة والرحمة والرعاية بوصفها نتائج للمشاركة في الحياة.

وكما بدأنا في مقدمة هذا الموضوع عن سبب أو سر اهتمام الغرب بالمرأة لا بد أن نسأل عن سر اهتمام مجتمعنا المحلي بالمرأة، هذا الاهتمام الذي جعلها مصدر كل الشرف ومرجعه ومحور الأخلاق.

إن من المثير للتأمل أن تتركز قضايا الشرف في المجتمعات الصحراوية على المرأة، وتستأثر المرأة في هذه المجتمعات (لا فرق بين أن تكون من قبائل الباكستان أو في قلب الجزيرة العربية أو في صحراء الأردن) بمجمل قيم الشرف، فانحسرت قيم أخرى، مثل شرف المهنة وشرف الكلمة.

هل نستطيع القول: إن المرأة هي الجمال الوحيد في الصحراء، وإن إنسان الصحراء عندما يضجر لا يجد أمامه سوى المرأة بوصفها مرسى للحب والحنان والدفء والعطاء، فلا أنهار ولا أشجار ولا ثمار، ومن ثم نشأ ينظر إلى المرأة بعين قلقة، وأنزل بها كل ما عنده من قيم، قد يؤيد هذا التحليل تشابه المجتمعات الصحراوية إلى حد كبير في هذه النظرة، حتى مع اختلاف أعراقهم وأديانهم، وفي المقابل نجد أن المجتمعات الاستوائية الرغيدة أقل المجتمعات تحسساً في جانب المرأة، فسواء في الفلبين أو إندونيسيا أو تايلند أو البرازيل، ليست المرأة هاجساً على الإطلاق، ولا يقوم الدين هنا بدور كبير، فالفرق محدود بين الإندونيسي المسلم وغير المسلم.

إحدى أكبر مشكلاتنا مع المرأة في مجتمعنا المعاصر تتمثل في التشابك الذي يبدو أنه غير قابل للفك بين النصوص الشرعية حول طبيعة العلاقة بين الرجل والمرأة، وما زودتنا به حياتنا الصحراوية والقبلية، إن أي متأمل لإدارة العلاقة بين الرجل والمرأة في مجتمعنا، وأي مطلع على طبيعة هذه العلاقة في المجتمع المرجعي النبوي والراشدي، يدرك أن هناك فارقاً كبيراً بينهما.

إن من المناسب أن نراجع دائماً مجموعة النصوص التي وصلتنا عن المرأة في المجتمع المثال (النبوي / الراشدي)، ومثال على هذه النصوص، تذكر قول الحق تبارك وتعالى في قضية شهادة الرجل والمرأة: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ﴾ دائماً ما يستشهد بهذه الآية على اتهام المسلمين لعقل المرأة، ولكنهم ينسون الوجه الآخر من أوجه متعددة تحملها هذه الآية الكريمة، وهو حضور المرأة مجالس الصفقات وشهاداتها عليها، ومعلوم أن الشهادة تتطلب حضوراً جسديًّا وذهنيًّا، فليس لغائب شهادة.

هناك نصوص متضافرة ومتوافرة تصف وضعية للمرأة في مجتمع النبوة وما بعده، غير تلك التي نحن عليها الآن، ما يعطينا دلالة واضحة على مدى الخلط بين الديني والعرف الاجتماعي في زماننا المعاصر:

- روى مسلم عن أم عطية ﵂ قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى.
  - سؤال: لو أن بلداً إسلاميًّا قد وضع نظام تجنيد للمرأة، كيف ستكون ردود أفعالنا؟
- روى البخاري ومسلم عن عائشة ﵂ قالت: كن نساء من المؤمنات يشهدن مع رسول الله الفجر متلفعات بمروطهن، ثم ينقلبن إلى بيوتهن، حين يقضين الصلاة لا يعرفهن أحد من الغلس.
- روى البخاري ومسلم عن أنس ﵁ قال: رأى النبي ﷺ النساء والصبيان مقبلين، من عرس، فقام النبي ﷺ مُمْثلاً، فقال: (**اللهم، أنتم من أحب الناس إلي**) قالها ثلاث مرات.

- روى مسلم عن فاطمة بنت قيس ﷺ: فلما انقضت عدتي سمعت نداء المنادي (منادي رسول الله ﷺ) ينادي: الصلاة جامعة... وفي رواية: فنودي في الناس أن الصلاة جامعة، فانطلقت فيمن انطلق من الناس، فكنت في الصف المقدم من النساء، وهو يلي المؤخر من الرجال.

في مجتمعنا الآن تياران يتحالفان دون وعيهما لإلحاق أكبر أذى ممكن بالمرأة، مع ظاهر العداوة الشديدة بينهما: تيار يطلق عليه أحياناً ليبرالي أو تغريبي، سمِّه ما شئت له رؤية تتمثل في أن تلحق المرأة في بلادنا بالمرأة الغربية؛ لتتحقق لها المساهمة في بناء المجتمع، وتستمتع بثمرات حقوقها.

التيار الثاني استشكلت لديه خلفياته المستمدة من النص الديني والإرث الاجتماعي، فألبس عادات المجتمع وتقاليده لبوس القداسة الدينية وإلزامياتها، فأوجد رؤية لا تخرج فيها المرأة من البيت إلا للضرورة.

الغريب في الأمر أن كل موقف من أي من هذين النقيضين يدعم بشكل قوي موقف الطرف الآخر.

إننا في أمس الحاجة اليوم إلى حوار صادق مرجعيته نصوصنا الدينية والمجتمع المثال (النبوي / الراشدي)، لإدارة العلاقة الثنائية التفاعلية بين المرأة والرجل بشكل يكفل سلامة الأمة وصيانة مستقبلها.

الشيء الذي لا بد أن يدركه بعض إخواننا من حسني النية أن أي تضييق على حركة المرأة لا يستند إلى أصل ديني قطعي الثبوت والدلالة سيهزم، وسيؤدي إلى مضرة أكبر، إنه أشبه بساتر رملي لوادٍ جارف كل ما يؤديه هو تجميع الماء مدة محدودة، ثم ينهار الساتر مدمراً ما خلفه.

وأخيراً تزخر - بفضل الله - مجتمعاتنا اليوم بأفذاذ من النساء والرجال استطاعوا، تخليص أنفسهم من إرث العادة والرجوع إلى منبع الخير وأصل كل هداية:

كتاب الله وسنة نبيه ﷺ وتطبيقهما الحي بالمجتمع المرجعي، يكافح هؤلاء الأفذاذ أكثرية تتمتع بالقوة المادية وبالمؤثرات الإعلامية والطغيان السياسي.

تحارب الأكثرية اليوم في العالم من أجل عالم يكون فيه الرجل والمرأة متساويين[١] تماماً، بحيث تذوب الفروق «الجندرية[٢]» في الفروق البيولوجية والفسيولوجية، وتكافح الأقلية من أجل الدفاع عن شرع يؤكد كرامتهما واختلافهما في المسؤوليات والواجبات، ليس ذلك فحسب، بل يرسم مشهداً بديعاً للتكامل في الأبعاد النفسية والاجتماعية والوظيفية والإنتاجية، ويعترف بإيجابيات كل طرف، ويثمرها بشكل ذكي.

تذكروا سؤالنا المفتوح عن سر اهتمام الحضارة الغربية اليوم بالمرأة الذي لا نستطيع أن نجزم بوجود إجابة مقنعة له؟

لدي يقين بأن العالم يوماً ما سيتذكر باعتزاز أولئك الأفذاذ الذين ظلوا يكافحون من أجل تمايز الرجال عن النساء؛ لحفظ توازن الكون وضمان ديمومة العلاقة واستمرار حياة البشر السوية.

(١) على الرغم من جهل كثير من المشاركين بالأهداف الحقيقية لهذه الحرب.

(٢) في اللغة الإنجليزية يستعملون كلمة (gender) جندر للدلالة على التمايز الاجتماعي والثقافي بين الذكر والأنثى، وكلمة جنس (sex) للدلالة على التمايز البيولوجي والفسيولوجي، ويترتب على مفهوم الجندر إشكاليات عدة، ولاقى معارضة في ثقافات كثيرة ومنها الثقافة الإسلامية، وذلك أنه يرتكز على المقوم الثقافي الاجتماعي في التمييز بين الذكر والأنثى، فالمجتمع هو الذي يجعل من الأنثى «أنثى» ومن الذكر «ذكراً»، وفي ذلك تطرف جلي للتقليل من العوامل الفسيولوجية.

obeikandl.com

٤
علاقات المسامحة والمشاحّة

obeikandl.com

obeikandl.com

علاقات المسامحة والمشاحَّة

تقـوم بعض التعاملات على «المسـامحة» وتقوم أخرى على «المشـاحَّة»، فالهبات مثلاً أساسها التسامح، والديون أساسها المشاحَّة.

كثير من مشكلاتنا مصدرها الخلط بين هذين المفهومين.

نطبـق قوانين المسـامحة على تعاملات المشـاحَّة، وقوانين المشـاحَّة على تعاملات المسامحة.

عندما تنشأ التجارة العائلية تستمر قوانين المسامحة (المطبقة على علاقات العائلة الاجتماعيـة) بإدارة التعاملات التجارية، وتنمو التجارة، ويغيب المؤسـس، ثم يفطن الجميع إلى أن التعامل التجاري أساسه قائم على المشاحَّة، والنهاية هي أقصى درجات المشاحَّة، وهو التقاضي مع ما يتبعه من تشهير وإساءة فهم.

العلاقـة الزوجية تقوم على المسـامحة، فـإن بدأ الزوجان بتطبيق قوانين المشـاحَّة أفسـدا العلاقة، فعلت لك كذا، وفعلت أنت كذا، وتبدأ الحسـابات، ولا يؤدي ذلك إلا إلى الشحناء، وقد تنتهي بأقصى درجات المشاحَّة، وهو الطلاق.

لا بد أن نميز في علاقاتنا بين ما يقوم على المشـاحَّة، وما يقوم على المسـامحة، فعلى سبيل المثال العلاقة مع الأخ تقوم على المسامحة، والعلاقة مع الشريك تقوم على المشاحَّة، إن تطبيق القانون المناسب في كل حالة يضمن صحة العلاقة واستمرارها، بل نموها.

وتصبح العملية أصعب عندما تدخل مع صديق في مشاركة تجارية، عندها لا بد أن تحذر من الخلط؛ حتى لا تفقد الصديق، وتفقد التجارة.

إن الفصل التام بين التعاملات القائمة على المسامحة، والتعاملات القائمة على المشاحَّة أمر في غاية الأهمية؛ لضمان جودة الحياة ونمو العلاقات.

يصدم بعض الناس، عندما يفاجئهم صديق حميم بحسابات دقيقة في تعامل تجاري، فقد أشكل عليهم أنهم يتعاملون مع شخص مختلف، ففلان الصديق غير فلان التاجر.

تأمل:

في علاقات المشاحَّة التوجيه الرباني: ﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾.

وفي علاقات التسامح: ﴿ وَأْتَمِرُواْ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ﴾.

وفي رأيي أنه من المفيد تنفيذ أعمال بحثية وفكرية للاستثمار في مفهومي المسامحة والمشاحَّة تستهدف التنقيب المعمق في البنية الفلسفية والنفسية والاجتماعية، ونجهد لأن نضع حدوداً بين تضاريس كل مفهوم وتطبيقاته في السياقات المختلفة.

0 حكومة الأخلاق

obeikandl.com

obeikandl.com

حكومة الأخلاق

قد تكون الحكومة بمفهومها السياسي أحد أكثر الأشياء أهمية في حياة البشر، والسبب بسيط، حيث إن هناك كثيراً من الوظائف الأساسية في حياة الإنسان لا يستطيع القيام بها بمفرده، وإنما يحتاج إلى الحكومة للقيام بها.

تصور أي مجتمع من الناس دون حكومة تفرض الأمن والنظام، وترعى الحقوق والمصالح، شاهدنا جميعاً في العقدين الماضيين انهيار الحكومة في بعض الدول، وكيف أصبحت حال الناس عندها.

هناك حكومة أخرى ليس لها كيان مؤسسي، ولا أجهزة ولا موظفون ولا تفرض عقوبات ولا تدفع رواتب، لكنها في غاية الأهمية في حياة الناس، دعونا نطلق عليها الحكومة الأخلاقية.

عندما نتعامل مع أحد الناس نفترض أنه: يصدق في الوعد، يحفظ الأمانة، يحافظ على السر، يتحاشى أن يقول ما ليس فيك... إلخ.

عندما تنهار الحكومة الأخلاقية (أو منظومة القيم) تصبح حياة الناس شقاءً وعذاباً.

في كل حالة تعامل تبذل جهداً مضاعفاً مثلاً للتأكد من أن فلاناً من الناس سيحضر في الموعد المحدد، تواصل الاتصال، وتعيد التذكير، وتقلق حتى حضوره.

وعندما يشتكي إليك عميل في مكتب تنفق جهداً هائلاً لمراجعة إفادته، وعندما تتحقق منها تجدها بعيدة كل البعد عن الواقع؛ لأن النسبة العظمى من هذه الشكاوى يتضح في نهاية الأمر أنها كيدية، أو تعطي نصف الحقيقة.

في المجتمعات التي لديها «حوكمة أخلاقية» قوية يعيش الناس بأقل قدر من الإنفاق على مثل هذه التعاملات.

تقف أمام أحد الكاونترات لطلب خدمة، مثل استئجار سيارة، فيدون الموظف أجوبتك دون حاجة للوثائق والتأكد.

يحدد لك صديق موعداً، فيحضر في الوقت المحدد والمكان المحدد.

يخبرك مأمور استعلامات عن شيء ما، فلا تحتاج إلى أن تسأل غيره للاطمئنان.

وعلى النقيض تعيش المجتمعات التي انهارت حكوماتها الأخلاقية (أو فسدت) في جحيم السؤال المستمر والتوثيق المضني وحرق الأعصاب في الانتظار.

كيف نبني الحوكمة الأخلاقية؟ موضوع فلسفي عميق تتشابك فيه السياسة مع الدين مع الأنثروبولوجيا، ولكن ضعف الحكومة الأخلاقية أو انهيارها على مستوى التعامل يشبه مأساة ضعف الحكومة السياسية، أو غيابها في مسألة الأمن والنظام.

٦ العدالة والحرية

obeikandl.com

obeikandl.com

العدالة والحرية

يكاد المفكرون يتفقون على أن العدالة هي القيمة الأعلى في منظومة القيم في الحضارة الإسلامية، وفي ثقافة المجتمع المسلم، فعلى العدل كما نقول قامت السماوات والأرض، وفي نص القرآن: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾، يقابلها في الحضارة الغربية قيمة الحرية بوصفها أعلى قيمة في هرم القيم الغربي، بل إن الساسة الغربيين إذا أرادوا أن يحشدوا، أو أن يجيشوا شعوبهم على عدو خارجي اتهموه بأنه يهدد حريتهم، ويجادل بعض المفكرين بأن الحرية إذا طبقت بشكلها الصحيح فهي تجلب معها العدالة، ومن ثم تتحقق هاتان الفضيلتان.

ويحيل الغربيون أصل قيمة الحرية إلى إرثهم اليوناني في أثينا القديمة، فيرجعون هذه الفضيلة العظمى عندهم إلى الحضارة الهيلينية.

يعتقد كثير من أبناء المجتمع العربي المسلم، أن الحرية التي يقدمها الغربيون هي تلك التي تُعنى بالجوانب الشخصية كحرية اللباس والعلاقات، غير أن الحقيقة أن هذا الجزء ليس هو الأكثر أهمية، بل إن المجتمعات الغربية تعلي من قيمة الحرية السياسية، وهي الضاربة في أعماق العقلية الغربية، ودفعت تلك المجتمعات أثماناً باهظة من أرواح أبنائها لتحقيق هذه الفضيلة وحمايتها.

من هذه القيم العليا تنحدر كثير من القيم الفرعية والسلوكيات الاجتماعية، بل الأنظمة والقوانين، وقد سألت أحد أساتذة القانون في جامعة هارفرد في أثناء محاضرة عن: «خيار الرجوع عن الصفقات في حال ما إذا ثبت وجود غبن كبير فيها؟»، فأجابني بطريقة حاسمة بأنه لا مجال مطلقاً لمثل هذا الأمر مهما كان مقدار الغبن،

فأخبرتـه عن وجود تشريع «خيار الغبن» في شريعتنا الاسـلامية الذي يكفل للطرف المغبون وفق ضوابط وشروط الحصول على سـعر عادل لبضاعته أو اسـتردادها، وقد ارتبط في ذهني هذا الأمر مع منظومة القيم، فإن كانت الحرية هي القيمة الأعلى، فلن يكـون هنـاك مجال لخيار الغبـن، وفي الثقافة التي تضع العـدل في المرتبة الأعلى لن تقر حصول ظلم واضح في أي صفقة ما، بحجة تحقيق الحرية لطرف ما مع ما يسبب ذلك من الظلم لطرف آخر، وفي هذا تجسـيد لروعة الروح الإسلامية في التعاطي مع ملفّي العدالة والحرية في إطار إنساني.

٧ قليل من السياسة

obeikandl.com

obeikandl.com

قليل من السياسة

مـن أكثـر ما يتعرض للنقـد في تاريخنا الإسـلامي مفهوم «دار الإسـلام» و «دار الحـرب» والجهاد بشـكل عام، والمفهومان غـير متفق عليهما في الفقه الإسـلامي، ولا في التطبيـق العملي في الدول الإسـلامية، مـا يتعرض للنقد والاسـتغراب في موضوع الجهاد هو تلك الحرب التي تنشأ من أجل تغيير دين لمجتمع ما على الرغم من أن كثيراً من المسـلمين يرى أن مثل هذه الحرب تنشـأ من أجل حماية حرية الاختيار، بمعنى أنها موجهة للنظام السـياسي الذي يمنع وصول الدعوة الإسـلامية إلى تجمع إنساني، وأما تصنيف دار الحرب ودار الإسلام في مفهومه البسيط فهو أن هناك قوانين وأنظمة تطبق على من يسكن في دار الإسلام وقوانين أخرى تطبق على من يسكن في دار الحرب.

الغريب في الأمر أن من يقرأ المشروع الأمريكي في العراق سـيصيبه الذهول من أن التبريـر الذي اسـتمدت منـه هذه الحـرب مشروعيتها في النهاية هـو تحرير العراق وتحويله إلى بلد ديمقراطي.

باختصـار، هـي حرب إيديولوجيـة لتحويل مجتمع يعيش بطريقـة ما إلى مجتمع يعيـش وفق رؤية مَنْ شـن الحرب! ما الفـرق بين مثل هذه الحرب، ومـا يزعمون أنه «جهاد ظالم»؟

الأمر الآخر أن الولايات المتحدة الآن تطبق قوانين مختلفة تماماً خارج الولايات المتحدة؛ لانتهاك حقوق الناس، ومعلوم أن سبب إيجاد معسكر (جوانتانامو) وكونه خارجاً عن أراضي الولايات المتحدة؛ حتى تسـتطيع المؤسسـة السياسـية والعسكرية الأمريكيـة التـصرف دون قيـود أو وفـق أنظمـة أخـرى، ألا يعني ذلك وجـود «دار أمريكا» و«دار حرب»؟

obeikandl.com

٨ الزمن

obeikandl.com

obeikandl.com

الزمن

ناموس عظيم وعجيب يبدو أن سره لم يأذن الله له بالظهور بعد.

ما طبيعة الزمن؟

سؤال قد يبدو سخيفاً لكثير من الناس، فقد لا يرى السواد الأعظم من الناس في هذا الأمر ما يدعو إلى التساؤل، غير أن المتتبع لتاريخ العلوم والحضارات سيمر دون شك على الحيرة الكبرى التي واجهت المتأملين في هذا الناموس العظيم من فلاسفة ومفكرين.

تعرض الفلاسفة الطبيعيون لهذا الموضوع، وربطوا ماهية الزمن بالحركة وبشكل أدق بعدد الحركة وأنه يقاس بالحركة العامة للكون، ثم جاء أرسطو، فتحدث بشيء من التفصيل في كتاب الطبيعة عن إشكالية الزمان، غير أنه ارتكز في حديثه على ارتباط الزمان بالحركة، وينقل الدكتور عبدالرحمن بدوي في موسوعته الفلسفية عن القديس أوجستين أنه كرس لمشكلة الزمان صفحات جميلة في كتابه (الاعترافات) وينقل لنا هذا النص:

«يبدو لي أن الزمان امتداد، ولكن امتداد ماذا؟ لا أدري! أللروح... ماذا أقيس حقاً؟ يا إلهي، حينما أقول مثلاً: هذا الزمان أطول من الآخر بوجه عام أو بوجه خاص، إن هذا الزمان ضعف الآخر، إنني أقيس الزمان أعرف ذلك، ولكن لا أقيس المستقبل؛ لأنه لم يأتِ بعد، ولا الحاضر؛ لأنه آن، ولا الماضي؛ لأنه ليس حاضراً بعد، فماذا أقيس إذاً؟ ..إلخ» .

دليل واضح على الحيرة.

ومع نيوتن أشـهر علماء الطبيعة في التاريخ البشري، الزمان مطلق، وهو الزمان الحقيقي الرياضي، وهو قائم بذاته، مستقل بطبيعته غير منسـوب إلى شيء آخر، يسير باطراد، وقد وضع برجسون الذي كرس لمشكلة الزمان بحوثاً كبيرة تميزاً جميلاً وحادًّا في الوقت نفسه، بين الزمان والمكان، ترجمه عبدالرحمن بدوي على النحو الآتي:

الزمان يعني	المكان يعني
المدة الحقيقية	الامتداد
الكثرة الكيفية	العدد
اللاتجانس	التجانس
التوالي	المعية، التتالي
الكيف	الكم
التغير	الثبات
البطون	الخروج
الاتصال النفسي	الانفصال
اللاممتد	الممتد
النفوذ المتبادل	عدم قابلية النفوذ
التلقائية، الحرية، التطور الخالق	الضرورة
الشعور	الآلية
الروح	المادة

وفي اعتقادي أن إحدى أبرز المحطات في تصور مفهوم الزمان هي تلك النظرية التي تعرف بالنسـبية في فيزياء آينشـتاين، ومن تتبع الإرهاصات الكبرى التي سبقت ظهـور هذه النظريـة، وخصوصاً في القرن التاسـع عشر الميلادي يجـد أن الزمان كان حاضراً، وهو المشـكلة والحل في الوقت نفسـه، وعندما اسـتقر في ذهن آينشتاين (كما أثبتتهـا تجارب عدّة) أن سرعـة الضوء ثابتة، ولا تعتمد على حركـة الراصد كان لابد مـن التوجـه للزمان؛ للخـروج بحل مقبول، وبعـد معاناة رهيبة خرج آينشـتاين على

العـالم بمفهوم النسـبية، وأصبح الزمان على ضوء هذه النظرية نسـبيًّا وبشـكل أدق لم يعد مسـتقلاًّ بذاته، وإنما له ارتباط بالمكان، حتى إن بعضهم عدّه بعداً رابعاً في الكون مـع الأبعاد الثلاثة للمكان. وقدم لنا آينشـتاين تنظيراً جديداً يقول: (إن الزمن يتباطأ مع السرعة، وتخيل نفسـه راكباً على رأس شـعاع ضوئي، وافـترض أن الزمن يتوقف تماماً، عندما يسـير أي كائن في الكون بسرعة الضوء) ويتباطأ الزمن على هيئة معادلة رياضية مع السرعة، وقد أجريت تجارب سـاعات ذرية بالغة الدقة حملت في طائرات تدور حول الأرض، وأثبتت النتائج صدق فرضية آينشتاين، ومن هذا المنطلق جاءت معضلـة التوءمين اللذين مكث أحدهما على الأرض، وسـافر الآخر بسرعة قريبة من سرعة الضوء إلى أحد الأجرام السـماوية البعيدة جدًّا، وعندما عاد بعد خمسـين سـنة وجد أخاه التوأم قد كبر، وشاب في حين هو لا يزال في طفولته المبكرة. المهم في الأمر أن علماء الطبيعة الآن يتصورون الزمان بشـكل نسـبي، له ارتباط بالمكان، بمعنى أنه لا يوجد شيء اسـمه (الآن) لشـيئين منفصلين مكانيًّا، لا شك في أن مثل هذا التصور عسير على الفهم.

غـير أنـه حتـى الآن، فقد اسـتطاعت النظريـة النسـبية أن تصمد أمـام كثير من الظواهر الكونية، واستطاعت تفسيرها بنجاح.

ينقسـم النـاس في إدراك أثر الزمن على تصوراتهم للأشـياء وحكمهم عليها إلى ثلاثة أضرب:

الأول: لا يحسـبون للزمـن حسـاباً، ويجـزم أن حكمه على شيء ما لـن يتغير مع مـرور الزمـن، فيتعرض لقرار أو تـصرف قديم بالنقد والتقويم دون أي حسـاب أو إدراك لأثر الزمن، ولا يتوقعون أن يحدث تغير كبير في حكمهم على الأشياء مع مرور الوقت، وهؤلاء هم أعجل الناس في إصدار الأحكام وانتقاد الآخرين. (هذا القسـم يتأثرون كثيراً بـ «المنطق القديم» الذي سبق الإشارة إليه).

obeikandl.com

الثاني: وهؤلاء يدركون أن للزمن أثراً قويًّا على تصور الأشياء، ومن ثم الحكم عليها، فيؤثرون تعليق أحكامهم على الأحداث السابقة، ويبدون في غاية الحذر عند سؤالهم عن رأيهم أو حكمهم في أشياء مستقبلية.

الثالث: وهؤلاء أعطاهم الله القدرة على إدراك أثر الزمن والخروج برؤية صائبة عن مدى هذا الأثر، ومن ثم يحققون السبق، سواء في مشروعات تجارية أو قرارات إدارية، وفي الغالب ينتمي الساسة والحكماء وكبار رجال الأعمال إلى هذا القسم.

كنت مع زميل في مؤتمر منظمة العواصم الإسلامية بطهران عام ١٤١٨هـ وتمت استضافتنا في أحسن فنادق طهران، وخلال تجاذب أطراف الحديث في قاعة الفندق أخبرني هذا الزميل بأنه جاء إلى الفندق نفسه قبل عشرين سنة؛ ليشترك مع لجنة سعودية لشراء مبنى للسفارة السعودية في ذلك الوقت، وعندها سألته: كيف يقارن بين الحال آنذاك والحال الآن؟، حيث كانت زيارته قبل الثورة، ونحن نجتمع الآن بعد مرور وقت على قيام النظام الجديد في إيران، فأطربتني إجابته المليئة بالحكمة، حيث قال:

كنت أنا في ذلك الوقت شخصاً مختلفاً، ويصعب علي الآن أن أصدر حكماً.

ومقولة صاحبي تذكرني بالمقولة الساخرة لـ«جورج برنارد شو» حين قال: الشخص الوحيد الذي أعرف أنه يتصرف بعقل هو الخياط، فهو يأخذ مقاساتي من جديد في كل مرة يراني! أما الباقون فهم يستخدمون مقاييسهم، ويتوقعون مني أن أناسبها.

إحدى أهم دلالات النضج البشري تأجيل اللذة، فالمعروف عن عظماء البشر قدرتهم العجيبة على تأجيل اللذة في مقابل التفكير الطفولي الذي غالباً ما يوصف بأنه (هنا والآن).

ما الذي نستطيع أن نفهمه من هذا؟ هل نستطيع أن نقول: إن العظماء يحترمون الزمن، ويعطونه فرصة للعبور والمرور، حتى تتحقق مطلوباتهم؟

تأمل الصبر، ما معنى الصبر؟ نحن نعلم أنه واحد من أعظم الصفات الحميدة التي يتحلى بها البشر، وتقرأ في القرآن الكريم أن الله عز وجل: ﴿يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بل هناك من يرى أنه قد كسر الإعراب في آية البقرة من أجل الصابرين في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾.

التعريف النمطي أو الكلاسيكي للصبر في موروثنا الإسلامي هو أنه نقيض الجزع، ويستشهد أنصار هذا التعريف بأسلوب المقابلة، كما في الآية الكريمة: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾، فهو إذاً حالة نفسية للإنسان يواجه بها الأحداث.

في اعتقادي أن الصبر أساساً مرتبط بالزمن، فكأن الإنسان عندما يصبر يحترم ناموس الزمن الذي لا بد أن يمر دون إزعاج، وهذا الناموس الذي هو الزمن لن يستأذن أحداً في المرور، وإنما الصابرون يتحملون مروره برضا واحتساب، في حين يكثر الجزعون من التسخط والاستدراك.

لاحظ أن تعريفنا للصبر، وهو السماح للزمن بالمرور دون ضجر يساعد على تفسير تفاوت بني البشر في حظهم من هذه الجبلة العظيمة، فأهل الصحاري أقل صبراً وأكثر انفعالاً من أهل الأنهار والبحار، أما قاطنو الجيوب الاستوائية فتكاد تجزم أنهم لا يعرفون الانفعال مطلقاً ولديهم صبر غير محدود[1]، هل يمكن أن نقول: إن مرور الزمن

(١) يظل السائق الإندونيسي ينتظر أسرة في قصر أفراح خمس ساعات دون ملل.

في المجتمعات الرغيدة يثمر نفعاً، أما في إنسان الصحراء فلا جديد، ما جعل إنسان الصحراء يتخذ موقفاً سلبيًّا من مرور الوقت، هذا التحليل يستند إلى شخصنة الزمن وعدّه كياناً مستقلًّا مفرداً بذاته.

هل يمكن أن نعرف الزمن بأنه إذن الله لحدث أو مخلوق بالتجلي؟!

يستفيد الشيخ محمد متولي الشعراوي -رحمه الله- من الضمير المتصل «له» في الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أن الأشياء والأحداث كلها قد تم خلقها وإيجادها، ما كان، وما هو كائن، وما سيكون، وإنما يأتي إذن الله تعالى لحدث أو شيء بالظهور.

تأمل:

«**يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر بيدي الأمر أقلب الليل والنهار**». أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة ﷺ.

٩ الربا ولحوم السباع

obeikandl.com

obeikandl.com

الربا ولحوم السباع

الربا محرم في شريعة الإسلام وفي الشرائع السماوية السابقة، فنحن نعلم من القرآن يقيناً أن اليهود قد نهوا عن الربا.

كثيرة هي البحوث التي تناولت الإشكاليات الاقتصادية للربا، فهو في مجمله آلية تجعل الغني أكثر غنى والفقير أشد فقراً.

دعونا نتعرف إلى طبيعة الربا، فالربا في اللغة: هو الزيادة، وفي الاصطلاح الشرعي: ربا الزيادة هو أن تأخذ زيادة في تناول تجاري من البضاعة نفسها، فإذا أعطيت إنساناً ذهباً بشكل معين، وأخذت أكثر منه أو أقل فهي صيغة ربوية، وكذلك الحال في الأصناف الربوية الستة التي أوضحها الرسول ﷺ في الحديث المعروف.

أما ربا النسيئة فهو قرض مضمون للمقرض مع زيادة على المقترض.

إذاً يمكننا أن نقول: إن الربا هو مال ولد مالاً دون عمل، والعمل هنا إما أن يكون بدنيًّا كالحركة أو ذهنيًّا كالأفكار والمبادرات أو نفسيًّا، كالقلق في المغامرة، فالصفقة الربوية تضمن الزيادة دون أي نوع من العمل، وكأن الإسلام عندما حرم الربا وحرم القمار يريد أن يعيش الإنسان في حد محسوب من المغامرة، فلا يجوز له أن يعيش دون أن يشارك بني الإنسان تحمل المغامرات، ولا يقبل منه أن يتقبل مخاطرة كمخاطرة القمار.

نحن نعلم أن أكل لحوم السباع محرم، ومن المؤكد أن حكمة الباري -عز وجل- حول هذا التحريم متعددة الجوانب، لكننا قد نقول من وجه خاص - ونحن نعلم

أن السباع تتغذى على اللحوم- : إن لحم السباع هو لحم تولد عن لحم، فكأن الدين الإسلامي لا يقبل قطع الطريق في دورة الحياة ذات النفع الأعم، فلحم الأنعام تم بناؤه على علائق مرت بدورة زراعية عمت فائدتها كثيراً من الناس، أما لحم السباع فقد نُمّي على لحم بشكل مباشر، وإن المتاجرة بالوسائل المشروعة توسع دائرة الانتفاع على خلاف الربا الذي يتولد فيه المال مباشرة بواسطة المال.

لاحظوا أن المراء منهي عنه في الشريعة الإسلامية، والمراء ليس:

استذكاراً يولد فهماً جديداً.

ولا هو وعظ قد يغير بعض السلوكيات.

وليس جدلاً قد يؤدي إلى الاقتراب من الحقيقة.

وليس تفاوضاً قد يوصل إلى صفقة ما، إنما هو كلام يولد كلاماً دون فائدة، بل في الغالب يوصل إلى الشحناء والتباغض.

المراء في اللغة: مأخوذ من الاستمرار في استدرار حليب الأنعام بعد انتهائه وفراغ الضرع من الحليب، وهو بذلك استعارة بليغة، فقد يتولد عن هذه العملية دم.

وتأمل أيضاً الغيبة، فهي حديث يولد حديثاً دون فائدة، فهو أيضاً حديث محرم.

إذاً، أحد مقاصد الإسلام الكبرى في التعاملات على مختلف أنواعها هو توسيع دائرة الانتفاع، وكلما اتسعت هذه الدائرة كان العمل أحسن، فالربا مال تولد عن مال، ولحوم السباع لحم تولد عن لحم، والمراء كلام تولد عن كلام، وجميعها غير مقبولة في شريعة الإسلام.

١٠ إدارة الفراغ

obeikandl.com

obeikandl.com

إدارة الفراغ

«تتمدد الأشياء لتملأ الفراغات المتاحة أسرع مما هو متوقع».

هذا قانون من قوانين الهندسة الصناعية منذ سمعت عنه قبل عشرة أعوام، وأنا أتتبع مصداقيته، فوجدته على درجة عالية من الموثوقية.

عند النظر في الفراغات المكانية المتاحة في منزلك تذكر كم استغرق من الوقت أهل بيتك ليملؤوا مستودعاً جديداً في منزلك، غالباً ستصيبك الدهشة للسرعة التي امتلأ بها المستودع الجديد، الأمر نفسه ينطبق على الأدراج في دولاب اشتريته توًّا أو مظلة في مزرعة، أو مكاتب جديدة في موقع عمل، أيًّا كان الفراغ المكاني، فإن الأشياء من حولنا تتمدد لتملأه بسرعة.

وإدارة الفراغ المكاني واحدة من أبرع المهارات الهندسية وأكثرها أهمية، تأمل الطائرة أنبوب لا يصل طوله إلى خمسين متراً وعرضه أقل من أربعة أمتار وارتفاعه قرابة مترين، صمم من الداخل ليستضيف أربع مئة مسافر تقريباً بأمتعتهم، ويوفر لهم وجبتين وأحياناً أكثر من الطعام والمشروبات الباردة والساخنة، ومخازن لثيابهم ومكتبة لجرائدهم ومجلاتهم وخزائن للحفهم ووسائدهم مع دورات المياه ووسائل الترفيه البصرية والسمعية، باختصار كل ما يحتاجون إليه أو تعودوا على استخدامه في منازلهم أو مكاتبهم في يوم كامل، كل مرة أسافر بالطائرة مسافات بعيدة تأسرني براعة المهندسين في الإفادة من الفراغات المكانية.

الأمر نفسه ينطبق على إدارة الفراغ الزماني، فالقانون الذي استفتحنا به هذا المقال يصلح في اعتقادي للتطبيق على الفراغ الزماني، فعندما يتاح فراغ زماني غير

مستغل، ستتمدد الأنشطة قليلة الفائدة، وربما الضارة، كمشاهدات التلفاز مدداً طويلة أو الحديث في الهاتف أو إدمان قراءة الجرائد، وإذا لم يمتلئ الفراغ المتاح بمثل هذه الأشياء فقد تتمدد إليه أنشطة أحياناً بالغة الخطورة، مثل أحاديث النفس المرضي والأوهام والوساوس، بل ربما يصل الأمر إلى الاكتئاب والقلق، وهو في اعتقادي تبرم رهيب بمرور الزمن.

عندما يتأمل الإنسان فروض الصلاة يصاب بالدهشة والذهول من قدرة هذه الشعيرة العظيمة على التمدد والانكماش بحسب حال الإنسان، فرجل الأعمال المشغول جدًّا، سواء في حِلّ أو ترحال لن يحتاج في اليوم والليلة إلى أكثر من ساعة في حال الإقامة، وربما نصف ساعة فقط في حالة السفر للوفاء بركن الصلاة أو أداء فريضة الصلاة مع مرونة كبيرة في التوقيت، بل غالباً ما تكون مواعيد الصلاة في أوقات فراغات مبرمجة من غير المسلمين، ومن دون وعي بذلك.

وفي المقابل تتمدد الصلاة في حياة مسن متقاعد لتشغل يومه بالكامل، ومن عاش مع والد كبير أو شيخ هرم يدرك ذلك، فهو يستيقظ قبل صلاة الفجر، وينتظر طلوع الشمس؛ ليؤدي ركعتين، ثم يصلي الضحى في أول النهار، وما يكاد يرتاح قليلاً حتى يسأل عن أذان الظهر، وبعد قيلولة قصيرة يستيقظ للعصر، ويستقبل القبلة في آخر النهار في انتظار المغرب، وغالباً ما يؤذن للعشاء بعد فراغه من تناول وجبة العشاء.

تتمدد الصلاة، وتنكمش مع يوم المؤمن بحسب ظروف حياته مشكلة وظيفة رائعة للدفاع عن وقته من أن تمتد إليه أي أمور ضارة، ومن خبر حياة المسنين من غير المؤمنين يدرك صعوبة حالهم، عندما يتقاعدون، وتطول الأيام والليالي عليهم، وبخاصة إذا انفض عنهم البنون، ولم يكن لهم زوج يؤنس وحشتهم.

II الأسعار فلسفة حياة

obeikandl.com

obeikandl.com

الأسعار فلسفة حياة

كان المسافرون من مجتمعنا في الماضي القريب «قبل ثلاثين سنة» عندما يعودون - خاصة من البلدان الغربية- بانطباعاتهم ومشاهداتهم، أكثر ما يثير دهشتهم عمران المدن ووسائل النقل والمخترعات، وكذلك طبيعة التعامل البشري، أما الآن فبدأت هذه الروايات تفقد بريقها؛ لأنه أصبح لدينا مثلما لديهم أو أفضل من المباني والطرق والأجهزة، وأصبح أكثر حديث العائدين عن الأسعار في البلدان الأوروبية، فأسعار السلع والخدمات في تلك البلدان هي صدمة لمن لم يسبق له السفر هناك مؤخراً، والعائدون من السفر للمرة الأولى يبدؤون الحديث عن الأسعار باندهاش، ويضطرون أحياناً إلى طلب الشهادة من بعض المرافقين أو الاستعانة بفاتورة؛ لإثبات صدقهم، وينتهي غالباً هذا المجلس بحمد الله وشكره على ما أنعم علينا من رخص الأسعار وسهولة الحصول على السلع والخدمات.

شكر الله -عز وجل- واجب على كل حال، وليس من العقل إنكار أو تجاهل ما فوق المادة من أسباب لا نعلمها، وتصنف بأحيان كثيرة في خانة «البركة» إلا أنه مع تسليمنا بكل هذا لا بد أن نسأل أنفسنا عن الأسباب التي جعلت بلاداً رغيدة، مثل البلدان الأوروبية تصل فيها أسعار السلع والخدمات إلى هذا المستوى، وهذه ثلاثة أمثلة بسيطة:

الصنف	متوسط السعر على مدار العام "الرياض"	متوسط السعر على مدار العام "مدينة أوروبية"
علبة ماء صحة ٣٠٠ ملم	١ ريال	٧ ريالات
كيلو طماطم	٥ ريالات	٢٢ ريالاً
مشوار ربع ساعة في سيارة أجرة	٢٠ ريالاً	١٣٠ ريالاً

تستطيع أن تستمر في القائمة دون اللجوء إلى الإحصاء، وتستطيع القول: إن أي سلعة أو خدمة في البلدان الأوروبية تقدم بخمسة أضعاف قيمتها في دول الخليج، ما الذي يجعل بلدان الأنهار والبحيرات تبيع للمستهلك المياه المعبأة بهذا السعر، والسؤال نفسه على بقية السلع؟ في رأيي أن هناك ثلاثة أسباب فلسفية تكمن وراء الموضوع:

الأول / الاستدامة: تفكر الشعوب المتحضرة في إدارة حياتها بطريقة مستدامة، بمعنى أنها تستهلك مصادرها وثرواتها الطبيعية بطريقة تكفل استدامتها، ومن ثم تضع لهذه الثروات أسعاراً (من خلال الضرائب المضافة أو تكلفة الحصول على المادة الخام) تكفل الاستهلاك الرشيد لها، وتضبط القوانين العامة مسألة الاستدامة، فأخشاب غابات السويد على سبيل المثال تدار بطريقة تكفل بقاءها واستدامتها، بحيث إن ما يقطع منها يعوض بنمو البديل.

ثانياً/ المساواة: تضع هذه الدول حدًّا أدنى للأجور ومستوى السكن بجعل تكلفة العنصر البشري في أي منتج (سلعة أو خدمة) مرتفعاً، سواء كان عامل بقالة أو نادلاً في مطعم، وفي مقابل ذلك تقوم العمالة الوافدة الرخيصة جدًّا بإنتاج وتسويق السلع والخدمات في الدول الخليجية.

وفيما يخص قطاع النقل بالذات تتنافس الدول الأوروبية على رفع نسبة استخدام النقل العام، وتطور من آلياته التي تدعم هذا التوجه، وقد حضرت مؤتمراً عن النقل العام في فلندا عام ٢٠٠٧م، فدهشت لحجم الجهود التي تبذل لدعم الناس

وتشجعهم على استخدام النقل العام، وقد وصل الأمر إلى أن أصبحت أزيد من ٨٠٪ من الرحلات اليومية في مدينة مثل باريس عن طريق النقل العام ومن الآليات المطورة ما وضعته مدينة لندن من حزام إلكتروني حول وسط لندن تدفع بموجبه السيارات التي تعبر هذا الحزام رسماً ماليًّا، ومما يثير الدهشة أن بعض البلديات الأوروبية الآن تتفاوض مع أصحاب مشروعات المباني بطريقة عكس ما يتم في بلداننا، حيث يسعى المطور لزيادة عدد المواقف، وتضغط البلدية في الاتجاه المعاكس رحمة بالناس والبيئة من سلطة السيارة الخاصة، وينظر هناك إلى النقل العام بوصفه أحد مظاهر المساواة، وهو بحق من أهمها فلا شيء يثير الشعور بالتكافؤ مثل استخدام وسيلة نقل عام؛ إذ السيارات الفخمة تستفز أحياناً ذوي الدخول المتدنية.

ثالثاً/ البيئة: صدم العالم الغربي بالآثار المدمرة للبيئة التي سببتها الثورة الصناعية، وفطن منذ عقود عدة إلى الأخطار الكبيرة التي تهدد هذا الكوكب من انبعاث الغازات واحتراق الوقود الأحفوري، ومنذ ذلك الوقت وحكومات تلك الدول تسن التشريعات، وتهتم بهذا الأمر على المستوى الوطني والدولي على الرغم من تمنع بعض تلك الحكومات مثل الولايات المتحدة الأمريكية من التوقيع على المعاهدات التي تحدّ من هذه الانبعاثات، وقد أصبحت البيئة أحد أكثر الشؤون العامة أهمية بالنسبة إلى العالم المتحضر، ودخلت الضرائب الموجهة للإصحاح البيئي في معظم المنتجات، ومن ثم رفعت تكاليف السلع والخدمات، ومما يثير الإعجاب أن قيمة التخلص الآمن من ثلاجة أو غسالة أو سيارة في اليابان تضاف مقدماً على ثمنها، بحيث تذهب هذه الأموال إلى الجهات المعنية بإدارة النفايات الصلبة.

وقد يلاحظ الزائر لهذه البلدان أن الناس تستهلك حاجتها فقط، ولا تبذر، ولا تعبث بالأطعمة أو تتسلى بقيادة السيارات، كما يحدث عندنا، إذاً فالأسعار فلسفة حياة.